

معضلة اصطفاء المنهج في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها

Methodological Waymarks in Teaching Arabic for non-Arabic Speakers

د. السيد محمد صالح**جامعة السلطان زين العابدين، ماليزيا****د. ماهر رمضان صالح****وزارة التربية والتعليم - مصر**

ملخص :

إنه مما لا يغيب عن وعي المشتغلين بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها الحال التي وصلت إليها اليوم من إعراض عنها، وضعف شأنها بين الأمم، حتى تجرأ عدوها ينادي لإسقاطها من قائمة اللغات العالمية بحجة عدم استعمالها في المنتديات والمؤتمرات الدولية، وقلة جدوى الانشغال بها، حتى في أمتها، فصار حالها قوة لغيرها، وقد انحسر وجودها الفاعل عالميا! وأكثر الناس اليوم من لا يتعلمها، كما أن تعليمها مع قلته وخضوعه تحت إمرة عولمة وهيمنة شائنيها، لا ينكر منصف أنه تعليم ضعيف هزيل، مرتبط بضعف الأمة. ومما يزيد في العجب أنهم لم ينسبوا حالها إلا إليها هي، ومن ثم فهي - في نظرهم - لغة صعبة التعلم، مستحيلة التعليم، لا ترقى إلى مستوى عالمي، ولولا أن تاريخ الحضارة العالمية يحوج إليها لما نظر إليها أحد، وبناء عليه فقد وجب التخلص منها. هذه هي الحال الواقعة والظاهرة التي تستدعي من كل منصف القيام لرد اعتبار هذه اللغة التي تعيش غربةً قطعاً من الليل مظلماً، حتى بين حملة عرشها وحماة صرحها. وإن هذا الفساد قد لزم إصلاحه، وأول الإصلاح إنما يكون بالنظر إلى ثلاثية لا تتفك عن حال أية لغة: خصائص علم، ومتعلم، ومعلم اللغة. وهي أهم عناصر المنهج التعليمي.

وإن ذلكم المنهج التعليمي له معالم وعلامات ؛ نجليها في هذه الوريقات؛ وفيها موجز لبعض ما استطعنا جمعه من هذه المعالم المنهجية في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها. الكلمات مفتاحية: تعليم - مناهج - معالم - العربية - الناطقون بغيرها.

ABSTRACT:

Those concerned with teaching Arabic for non-Arabic speakers have become fully aware of the miserable status which this language has reached. Arabic nowadays has become so humble that its enemies call for taking it out of the list of international languages under the pretext that it is no longer used in international seminars and conferences and that it has become an insignificant business even among Arabs. Arabic has gradually withdrawn from any effective international presence and most people do not have the desire to learn it. Any fair observer could not deny that its teaching, being under the global domination of its antagonists, has grown so weak and reflective of the weakness of the Arab nations. The enemies of Arabic claim it to be difficult to learn and quite impossible to be taught to others. In their view, it cannot reach an international level. Had it not been part of the world history, no one would be in need to study it. Therefore, it should be rid of. This situation thus requires the proponents of this language that has been suffering even among its people to rehabilitate its reputation and rectify this corrupt condition. This rectification should begin with the reconsideration of the three essential elements of any language: The characteristics of the language, the learner, and the teacher. These are the most important elements of the educational methodology. Such methodology has waymarks that we shall try to highlight in this paper with regard to teaching Arabic for non-Arabic speakers.

Keywords: Education - Curricula - Landmarks - Arabic - Non-Arabic speakers.

مقدمة :

لا يخفى على ذي نظر الآن الإقبال الكبير على تعلم العربية من الناطقين بغيرها؛ بل أصبح يحظى باهتمام بالغ في كل أنحاء المعمورة، وصار بحاجة لجهود كبيرة من المختصين تواكب هذا الإقبال من أجل الوصول لأفضل النتائج، ورغم التطور الكبير في المناهج والطرق وتأهيل المعلمين إلا أنه ما زال هناك بعض الإشكاليات حول المنهج واختياره وماهيته وأي المناهج التي يصلح وأيهم أنفع وأنجع؟!

وتكمن أهمية هذه الدراسة في وضع يد الدارسين والمدرسين والمهتمين بمجال تدريس العربية للناطقين بغيرها على سمات عامة وخصائص محددة ومعالم حول اصطفاء المنهج المناسب للاستعانة به في مثل هذا الحقل التعليمي ومن ثم تقديم معالم مثل هذا المنهج وإثبات صلاحيته في تثبيت دعائم هذا العلم وإرساء قواعده على الطريقة الصحيحة، والمنهج القويم.

وتنبثق إشكالية هذه الدراسة في تعاضم الطلب لتعلم اللغة العربية من غير الناطقين بها، مع كثرة المناهج والطرق والبرامج المطروحة على أرض الواقع، مع الحيرة عند اختيار المنهج المناسب والطريق الأمثل؛ ومع ذلك تبقى النتائج ضعيفة، وغير مرضية تماما، وما زالت الشكوى مستمرة.

منهج البحث:

في هذا البحث تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يهتم بدراسة الظاهرة ووصفها كما هي بلا مبالغة، ومن ثمّ الاعتماد على نتائج الوصف والتحليل في المضي قدما نحو علاج تلك الظاهرة.

مشكلة البحث

ولا يغيب عن نظر وسمع من يعمل في مجال تعليم العربية تلك الصرخات والنداءات المتوالية والمتتالية من أهلها وغير أهلها من صعوبة المناهج وتداخلها، وعدم توفر منهج مكن متفق عليه قد أتى بثماره، مع الضعف الملموس في مستويات الخريجين من الدارسين لها، متهمين اللغة ومرجعيم أسباب القصور لها؛ لصعوبتها وتشعب مسالكها، وتداخل أبوابها وعسر موادها، وتشابك فروعها؛ فلا يقفون فيها على حد، ولا يملكون لها سبرا.

هذه هي الحال الواقعة والظاهرة التي تستدعي من كل منصف القيام لرد اعتبار هذه اللغة التي تعيش غربة قطعاً من الليل مظلماً، حتى بين حملة عرشها، وحماة صرحها. وإن هذا الفساد قد لزم إصلاحه، وأول الإصلاح إنما يكون بالنظر إلى ثلاثية لا تتفك عن حال أية لغة: خصائص علم، ومتعلم، ومعلم اللغة. وهي أهم عناصر المنهج التعليمي.

إن التخبط والاضطراب والتعجل والعشوائية والقصور والإفراط والتفريط والنقص والسطحية والترقيع، وفقدان عوامل القوة، كل ذلك ونحوه مما يعتور تعليم العربية اليوم، ويدل على أن تعليمها ليس بمنهج مستقيم، والأثر يدل على المسير.

نعم إنه لا ينكر عسر العربية بسبب قوتها وصرامتها واتساعها ومحكمها ومتشابهها، وتتداخل أبوابها، وتصرفاتها الأسلوبية كالحذف والتقديم والتأخير، وتمسكها بالفروق اللغوية، وتشعب مسائلها، وكثرة مؤلفاتها،

واختلاف علمائها، وكونها فريضة للدين، مما يصرف الناس عن أثقالها، ويلجئهم لترجمتها. لكن عسرها أمر أراد الله؛ لتكون ميدان عبادة وجهاد وصبر، كالتكاليف الشرعية، تيسيرها أعمال صالحة. وبالنظر إلى خارطة تعليمها في العالم، يتحتم علي تشخيص الداء، ووصفه بالوبيل، جاعلا همي صنعة الدواء، ونعته بالمنهج الأصل، نحبيه ونزينه للاتجاهات التعليمية الحديثة أن تفكر فيه، وتسعى إليه في تجارب صادقة فستجني منه خيرا كثيرا.

المبحث الأول: مجمل معالم وأسس المنهج الإسلامي في تعليم العربية
ومن واقع الخبرة الطويلة في هذا الحقل ، يمكننا أن نجمل هذه معالم هذ المنهج في النقاط الآتية:

- سلم بأن العربية الحقّة وحي وتوقيف.
- سلم بأن العربية الحقّة وحي وتوقيف.
- اتخذ العربية آلة الدين.
- بين شبهة ترجمة لسان الدين، واعتبرها مسلكا غير شرعي.
- رأى تعلمها فريضة واجبة، بلا إكراه.
- ربط كيان الأمة الواحدة بلسان واحد.
- عني بدراسة المعنى.
- عني بدراسة اللغة أفقيا ورأسيا.
- ارتكز على ما يعرف بالمحكم والمتشابه في مقابل المعرب والمبني.
- جعلها علما منضبطا.
- يسر تعليمها بتخفيف الثقل بوسائل شرعية.
- اهتم بتعليم المفردات.
- أغنى الميدان بحوائجه.
- قسم تعليم العربية إلى ثلاثة مستويات.
- عني بمكانة معلم ومتعلم العربية.
- حرس الميدان من الفشل الإداري، وإفساده.
- حث على التخصص، والتواصل الحضاري.
- اتخذ النصوص اللغوية الشرعية المعتبرة دليلا.
- قرر أن قواعد العربية استنباطية اجتهادية.
- مزوجة البلاغة والنحو وعدم الفصل بينهما.
- تحصين الدارس من ظاهرة الخلاف بين العلماء.
- تمكين المتعلم من قياسية اللغة.
- الأخذ بفكرة التعلم الذاتي.
- أحسن التعامل مع ظاهرة اختلاف القراءات القرآنية.

- أعرض عن لغو علم اللغة الحديث
- اتخذ فكرة تتابع تعليم اللغة في مدة زمنية متصلة
- حرم أن يلجأ معلم أو متعلم إلى أن يستعين بلغة وسيطة
- جعل علم العربية مقدمة لغيره من علوم الدين كلها
- بنى تعليم العربية على ضرورة إيجاد حياة لغوية عربية حقيقية
- أوجب على من تعلم العربية دوام استعمالها في شتى حياته
- أوجب على الأمة توفير دواعي استعمال متعلمها في أغراض حياتية نافعة
- اشترط مقياس التجويد للمبنى والمعنى
- علم العربية بأمثلة عملية عالية
- حافظ على عمود الشعر العربي القديم
- يرى أن العربية وسيلة لا غاية
- فرض على الكتاب التعليمي مواصفات تعليمية قوية
- يرى أن تعلم العربية فريضة على كل إنسان لا ينوب عنه فيها أحد
- سلم للفروق اللغوية بحقوقها
- لم يستهن بشيء له دلالة وإن صغرت
- ينفر من التكلف في الوسائل المعينة
- تخلص من اختلاف لغات العرب ولهجاتهم؛ ضبطا لعلم العربية
- دعا للتخلص من مظاهر الضعف في بيان ظاهرة تعانق المعاني
- دعا لتوحيد الوجوه الإعرابية؛ لفض النزاع في تشابه وتداخل المعاني
- آمن بالتضاد بين المفردات
- بين أن الأضداد صورة مجازية
- بين أن المشترك اللفظي مرده إلى معنى أصل، والباقي مجازي
- لم يعول على اختلاف العلماء في المصطلحات
- نفر من التفسير الشكلي لظواهر اللغة
- حرر المتعلم من تبعية الاجتهادات والتفسير
- لم يغلق باب البحث والاجتهاد في تحليل الإعراب
- دعا المتعلم للاقتباس من النصوص العليا ومحاكاتها للاقتراب من مستواها البياني.
- اتخاذ أسلوب الثواب والعقاب
- تقسيم المتعلمين إلى مستويات
- ينقد طرق تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها تباعا:
- ميزان تعلم العربية وإتقانها:

- اعتبار تعلم العربية أنه أدب للنفس في اللسان
- تحرير المتعلم عند إنشاء الكلام من تقليد القوالب التعبيرية، بل محاكاتها
- تشجير المفردات إلى أقسام عامة: فاكهة، لحم، طير، ..
- تقسيم المفردات إلى كتب: خلق الإنسان، كتاب الخيل
- حصر الأفعال الحقيقة والمجازية
- حصر الفواعل الحقيقة والمجازية
- حصر الأجزاء اللغوية للشيء الواحد للأهمية
- حصر الفوارق الدلالية للأخوات والأدوات للوقوف على دقة معاني النحو
- حصر التدرج والترتيب لأفعال وأسماء الشيء
- أسس أصول الفقه إنما هي أصول فقه النصوص العربية، فأتى بناء المنهج النقدي
- حراسة العقل في منطق الفهم السديد
- وقّر كتب قانون التأويل
- وقّر كتب بيان المتشابه الأسلوبي
- قعد أساس البلاغة لحراسة المعنى الحقيقي والمجازي
- كتب التفسير زاد لفهم النصوص
- تأويل اختلاف القراءات
- التحقيق في زيادة رسم حروف المبنى
- التحقيق في رسم حرف الهمزة
- التحقيق في بسط التاء وقبضها
- التحقيق في رسم حرف الميم ورمزية دلالاته في كل حال
- التحقيق في حذف بعض الحروف عند الوقف، وعند الوصل
- التحقيق في زيادة، واختلاف بعض الحروف عند الوقف
- العكوف على جهود علماء العربية للتبصر بأسرارها التي حفظوها
- مراجعة جهود علماء العربية والتحقيق في قواعدهم
- الأخذ بمشاهدة المعلم والمتعلم
- إمداد المتعلم بحراسة صحيح العربية من المتداخل، والمتشابه، والغريب، واللحن
- جهود الأمة في تعليمها حجة وميزان لا يعدل عنه إلا لما هو أيسر
- مراجعة ما يحدث في رسم العربية من خطوط، وعلامات ترقيم، وألوان، ورموز، واختصارات
- إتقان علم كتاب الله مبنى صوتيا وصوريا، ومعنى بمقياس عملي، ومعياري دلالي مفاده: (ملكة إتقان كتاب الله)
- حراسة أصول المباني العربية صوتا وصورة من البدع الضالة

- لا يعتد بالمفردات المنقولة من العربية للغات أخرى قبل فحصها علميا
- من حق هذه اللغة مراقبة ومحاسبة من يتعرض لتعليمها، إن أحسن أو أساء
- التصدي لما يثار من تشكيك في كون العربية الحققة لغة مضطربة
- التفريق بين العربية واستعمال العرب لها في المفردات والأساليب
- الأخذ بعلوم اللغة كلها، مرتبة، ولا ينتقل إلى علم إلا بعد إتمام سابقه
- عدم الخضوع للعقبات الميدانية الصادة عن صحة تعليمها
- التنقيب عن القيم البلاغية في النصوص العالية
- اتخاذ بلاغة الرسول -صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة لقدرات البشر، ودراسة قدر كاف من كلام البلغاء

- مدافعة اللحن
- أسس فقه وتحليل النصوص
- إتمام جهود علماء العربية وكونها حجة
- دعا إلى تعليم العربية في الصغر
- الجمع بين اسم الشيء وصورته ما أمكن
- بين أسس القراءة العلمية لجهود علماء العربية
- فتح باب الاجتهاد لاستنباط الباقي والمزيد من قواعد العربية
- بين موانع الفهم بدقة

المبحث الثاني: بيان موجز لبعض هذه الأسس المنهجية

1. سلم بأن العربية الحققة وحي وتوقيف:

ليضمن لغة نقية قوية، فوجب أن تكون ديناً في مادتها العلمية، والتعليمية، وفي هذا يقول ابن القيم: "إن القرآن نقل إعرابه كما نقلت ألفاظه ومعانيه، لا فرق في ذلك كله فألفاظه متواترة، وإعرابه متواتر، ونقل معانيه أظهر من نقل ألفاظه، وإعرابه فإن القرآن لغته ونحوه وتصريفه ومعانيه، كلها منقول بالتواتر، لا يحتاج في ذلك إلى نقل غيره، بل نقل ذلك كله بالتواتر أصح من نقل كل لغة نقلها ناقل على وجه الأرض، وقواعد الإعراب، والتصريف الصحيحة مستفادة منه، مأخوذة من إعرابه وتصريفه، وهو الشاهد على صحة غيرها مما يحتج له بها، فهو الحجة لها والشاهد، وشواهد الإعراب والمعاني منه أقوى وأصح من الشواهد من غيره حتى إن فيه من قواعد الإعراب وقواعد علم المعاني والبيان ما لم تشتمل عليه ضوابط النحاة وأهل علم المعاني إلى الآن"⁽¹⁾. كما أن الإمام الشوكاني يقول في هذه الحقيقة مؤكدا صحة هذا الحكم؛ فصرح بما لم يترك ذرة من شك: "والحق أن جميعها منقول بطريق التواتر"⁽²⁾.

2. اتخذ العربية آلة الدين:

لأنها أقدر وسائل البيان تعبيراً، ومن ثم فهي ملكة مكتسبة، لاستعمال الطاقة التي خلقت في الإنسان؛ فقام علماء العربية بتوفير أمهات الكتب التعليمية الزاخرة، التي تمثل تجارب تعليمية حقيقية في بيئات عجمية

نجحت لتكون مثالا يحتذى، وأسوة تقتدى، حتى كأن كل بيئة في الشرق الإسلامي أو الغرب تحملت أن تثبت قدرتها في تعليم العربية، مع الاتصال بأخواتها، بل ومنافستها. واعتبروا قواعد العلوم الثلاثة في مجملها هي النحو بمفهومه الشامل عند الكلام معنى ومبنى؛ فالنحو هو النهج العلمي الذي يقابله اللحن. قال الرافعي: "واللغة لا تخلق على لسان أحد؛ بل لابد من التقليد والمحاكاة"⁽³⁾.

ويستعرض البحث من التاريخ التعليمي تجارب واقعية ناجحة في بيئات أعجمية يمكن اعتبارها من معالم المنهج الإسلامي: يحل ابن خلدون عقدة كبرى في الميدان فيقول: "إذا سبقت العجمة إلى اللسان قعدت بصاحبها عن تحصيل العلوم باللسان العربي: والسر أن مباحث العلوم إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية؛ فالعلوم الشرعية أكثر مباحثها في الألفاظ، وموادها الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية لها، وكلها في الخيال، والعلوم العقلية كلها في الذهن"⁽⁴⁾.

ويقرر حقيقة علمية: "واللغات ترجمان عما في الضمائر، تؤدي بالمشاهدة وممارسة البحث في العلوم، والألفاظ وسائط وحجب بين الضمائر، ولا بد، لأجل اقتناص المعاني من ألفاظها، من معرفة دلالاتها اللغوية؛ وجودة الملكة، وإلا صعب اقتناصها زيادة على ما في مباحثها الذهنية من الصعوبة، وإذا كانت الملكة راسخة بحيث تتبادر المعاني إلى الذهن من الألفاظ، زال ذلك الحجاب بين المعاني والفهم، أو خف، ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث. هذا إذا كان التعليم تلقينا، أما إن احتاج إلى التقييد ومشاهدة الرسوم الخطية، كان هناك حجاب آخر بين الخط والألفاظ المقولة؛ لأن رسوم الكتابة لها خاصة على الألفاظ، وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة، ويزداد بذلك حجاب آخر أعوص من الأول".

ويصرح بدقة المتابعة الميدانية: "واللغة ملكة في اللسان، والخط صناعة في اليد، فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة صار مقصرا في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية، وصعب فهم المعاني، إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم، كما في أصاغر أبناء العجم الذين يُربون مع العرب، وربما يفضي الدأب والمران على اللغة والخط إلى تمكن الملكة، كما نجد في الكثير من علماء الأعاجم، ولكنه نادر، وإذا قرن أحدهم بنظيره من علماء العرب كان باع العربي أطول"⁽⁵⁾.

ويلخص مجملا دقيقا في سبيل إتقان العربية: "إلا أن اللغات لما كانت ملكات كان تعلمها ممكنا، بأن يأخذ المتعلم نفسه بحفظ كلامهم الجاري على أساليب القرآن، والسنة، وكلام السلف، وفحول العرب، وكلمات المولدين، حتى ينتزل بكثرة حفظه منزلة من نشأ بينهم، ثم يتصرف في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، فتحصل له الملكة بالحفظ والاستعمال، ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع، والتفهم الحسن لمنازعاتهم ومراعاة مقتضيات الأحوال"⁽⁶⁾.

ويفرق بين أمرين فيقول: "ملكة اللسان غير صناعة العربية: ذلك لأن صناعة العربية هي قوانين الملكة، فهي علم بكيفية، وليست هي نفس الكيفية، فهي بمثابة من يعرف الصناعة علما ولا يحكمها عملا، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة إذا سئل كتابة سطرين أخطأ فيهما الصواب، وأكثر اللحن، وكذلك نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة، يجيد المنظوم والمنثور لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا شيئا من قوانين صناعة العربية"⁽⁷⁾.

ويرسخ قاعدة أصيلة في تعليم اللغة فيقول: "الذوق عند أهل البيان: معناه حصول ملكة البلاغة للسان، فالبلغ يتحرى الهيئة المفيدة للبلاغة وينظم الكلام على ذلك الوجه حتى تحصل له الملكة، فيسهل عليه التركيب، وإذا سمع تركيباً غير جارٍ على هذا المنحى مجّه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر أو حتى بغير فكر، فإن الملكات إذا رسخت ظهرت كأنها طبيعة، ولذلك يُظن أن الصواب للعرب في لغتهم أمر طبيعي، وليس كذلك، ولكنها ملكة تمكنت ورسخت، فظهرت كأنها جبلية وطبع"⁽⁸⁾.

ويحدد أهم علوم اللغة في قوله: "اللسان العربي أركانه أربعة: اللغة، والنحو، والبيان، والأدب"⁽⁹⁾.

ويرسم سبيل الملكة بقوله: "اللغة ملكة صناعية: اللغات ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، فإذا حصلت الملكة في تركيب الألفاظ للتعبير عن المعاني، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم الغاية من إفادة، وهذا هو معنى المقصود للسامع، وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار؛ لأن الفعل يقع فتكون منه للذات صفة، ثم يتكرر فتكون حالاً، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، فالمتكلم من العرب كان يسمع كلام جيله وكيفية تعبيرهم، فيلقنها، ثم لا يزال سماعه يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، ولا يزال استعماله يتكرر إلى أن يصير ملكة"⁽¹⁰⁾.

ويبني على ما سبق: "وجه الصواب في التعليم وطرق إفادته: تلقين العلوم يكون مفيداً إذا كان على التدريج؛ يلقي للمتعلّم، أولاً، مسائل هي أصول الفن؛ ويُقرّب له شرحها بالإجمال، ويراعي جودة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه، فيحصل له ملكة جزئية، غايتها تهيئته لفهم الفن، ثم يرجع به المعلم إلى الفن، فيرفعه في التلقين إلى مرتبة أعلى، ويستوفي الشرح، ويخرج عن الإجمال، بذكر الخلاف ووجهه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته، فإن الاستعداد في المتعلم ينشأ تدريجياً، فبالنقريب، والإجمال، والأمثال الحسية يتدرج الاستعداد حتى تتم الملكة، وإذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات كل ذهنه، وحسب ذلك من صعوبة العلم، فأنحرف عنه، وتمادى في هجرانه، وإنما ذلك من سوء التعليم"⁽¹¹⁾.

ثم يتوجه بالنصح إلى المعلم: "وينبغي ألا يطول التعليم في الفن الواحد بتفريق المجالس؛ لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن، فيعسر حصول الملكة، لأن الملكات تحصل بتتابع العمل وتكراره"⁽¹²⁾.

فابن خلدون يصطفي الكتاب التعليمي الأنسب؛ ليخفف عبء كثرة المؤلفات محل الشكوى؛ فيقول: "كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل: مما أضر في تحصيل العلوم كثرة التأليف، واختلاف الاصطلاحات ومطالبة المتعلم باستحضارها، فيحتاج إلى حفظها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره فيقع في القصور إلا في القليل النادر"، وأن "كثرة الاختصارات مخلة بالتعليم: ذهب المتأخرون إلى الاختصار في كل علم، يدنون منه برنامجاً يشتمل على حصر مسائله؛ باختصار الألفاظ، وحشوها بالمعاني الكثيرة، وقد صار ذلك مخلاً بالبلاغة، عسراً على الفهم، وهو فساد في التعليم، وإخلال بالتحصيل، لأن فيه تخطيطاً على المبتدئ، بإلقاء غايات من العلم عليه، وذلك من سوء التعليم، لأن فيه شغلاً كبيراً على المتعلم، بتتبع ألفاظ الاختصارات التي صارت عويصة بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المعاني منها، فيضيع في فهمها الوقت، ثم الملكة الحاصلة من التعليم في المختصرات قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة"⁽¹³⁾.

ويضع خطة دقيقة لمراحل تعليم اللغة: "وقبل تعلم المنطق لابد من تعلم دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة، ثم دلالة الألفاظ على المعاني المطلوبة، ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال بقولها المعروفة في صناعة المنطق. ثم تلك المعاني مجردة في الفكر وهي أشراك يقتنص بها المطلوب. وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة، بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ أو عثر في أشراك الأدلة، وقعد عن تحصيل المطلوب. فإذا حصل المطلوب فليراجع إلى قوالب الأدلة لإفراغه فيها، وتوفيته حقه من القانون الصناعي، ثم كسوته بالألفاظ وإبرازه إلى عالم الخطاب"⁽¹⁴⁾.

وبصح بالمعينة مفهوما دقيقا في هذا الميدان، يصلح فائدة لتعليم اللغات الأجنبية فيقول: "فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات، أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعي. ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع"⁽¹⁵⁾.

بل يصل إلى ما هو أعجب، فيرى إتقان العربية في العهد الإسلامي القوي قد فاق العصر الجاهلي في مرتبة إتقانها، فيقول: "ويظهر لك من هذا الفصل، وما تقرر فيه سر آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب، أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، في منثورهم ومنظومهم"⁽¹⁶⁾.

وقرر ابن خلدون "في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي والسر في ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية، من بين العلوم الشرعية، التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ ومودها من الأحكام المتقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية لها، وهي كلها في الخيال، وبين العلوم العقلية، وهي في الذهن. واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة بالمناظرة والتعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكاتها بطول المران على ذلك. والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام بين المعاني. ولا بد في اقتياض تلك الضمائر من المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها، وجودة الملكة لناظر فيها، وإلا فيعتاض عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص. وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة، بحيث يتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عن استعمالها، أن البديهي والجبلي، زال ذاك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم أو خوف، ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث فقط. هذا كله إذا كان التعاليم تلقينا وبالخطاب والعبارة. وأما إن احتاج المتعلم إلى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشافهة الرسوم الخطية من الدواوين بمسائل العلوم، كان هنالك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب، وبين الألفاظ المقولة في الخيال. لأن رسوم الكتاب لها دلالة خاصة على الألفاظ المقولة. وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة. وإن عرفت بملكة قاصرة كانت معرفتها أيضا قاصرة، ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك حجاب آخر بينه وبين مطلوبه، من تحصيل ملكات العلوم أعوص من الحجاب الأول. وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وصار إنما يعاني فهم مباحثها فقط. هذا شأن المعاني مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة. والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكاما

لملكاتهم، ثم إن الملة الإسلامية لما اتسع ملكها واندرجت الأمم في طيها ودرست علوم الأولين بنبوتها وكتابها، وكانت أمية النزعة والشعار، فأخذ الملك والعزة وسخرية الأمم لهم بالحضارة والتهديب، وصيروا علومهم الشرعية صناعة، بعد أن كانت نقلا، فحدثت فيهم الملكات، وكثرت الدواوين والتأليف، وتشوفوا إلى علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم وأفرغوها في قالب أنظارهم، وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم وأربوا فيها على مداركهم، وبقيت تلك الدفاتر التي بلغت الأعجمية نسيا منسيا وطللا مهجورا وهباء منثورا. وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب، ودواوينها المسطرة بخطهم، واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لدروسها وذهاب العناية بها. وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد، فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة، صار مقصرا في اللغة العربية، لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل، فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى، وهو ظاهر⁽¹⁷⁾.

ثم يقول: "وإذا كال مقصرا في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعاني منها كما مر. إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم. فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية. وكذا أيضا شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي. ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهرا يخفون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني. وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك، بتمام ملكته، وإن صار له فهم الأقوال من الخط، والمعاني من الأقوال كالجبلية الراسخة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وربما يكون الدؤوب على التعليم و المران على اللغة، وممارسة الخط يفيضان لصاحبها إلى تمكن الملكة، كما نجده في الكثير من علماء الأعاجم، إلا أنه في النادر. وإذا قرن بنظيره من علماء العرب وأهل طبقتهم منهم، كان باع العرب أطول وملكته أقوى، لما عند المستعجم من الفتور بالعجمة السابقة التي يؤثر القصور بالضرورة ولا يعترض ذلك بما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم، لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قررنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك وهي المرادة هنا. ولا يعترض ذلك أيضا مما كان لليونانيين في علومهم من رسوخ القدم فأنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم. والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، ومن غير خطه الذي يعرف ملكته. فلماذا يكون له ذلك حجابا كما قلناه. وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج. وسائر من ليس من أهل اللسان العربي. وفي ذلك آيات للمتوسمين⁽¹⁸⁾.

3. بين شبهة ترجمة لسان الدين، وعدّها مسلكا غير شرعي:

للأسف، قد ساد مسلك الترجمة، على أنها قضية قضى فيها الأمر وليست محل خلاف؛ فكتب المفسرين تصرّح بأن ترجمة القرآن إلى الألسنة المختلفة هي الحل الذي يفهم به كلام الله، وهي الحل الذي يستطيعه

العجم، ويستطيعه العرب، ويحقق التعارف بين الناس على اختلاف ألسنتهم، ومن ثم فليس لأحد من الباحثين أن يفتح ملف ترجمة الدين؛ لأنه ليس بحثاً علمياً يخضع لإعادة النظر، فقد قال الدين فيه قوله، وسار عليها جمهور العلماء، وكأنها إنما صارت حقيقة لا تقبل المناقشة.

نعم، ليس عجيباً أن تكون وحدة اللسان الجامع عرضة لاختلاف الناس في أمره، لا سيما إذا كانت هذه الوحدة تكلف الناس. بما فيهم العرب. عبء تعلم وتعليم وإتقان هذا اللسان العربي المبين إتقاناً يصل إلى حد الرسوخ في علمه، وحراسته والحفاظ عليه، لكن العجيب والغريب حقاً أن يركن الناس إلى ظاهر هذا الاختلاف دون التبصر بحقيقة الأمر المراد فيه، ومن ثم فقد يستجيب لداعي الفرقة بينهم من يستجيب، ويتخذ هذا الاختلاف مادة تفصل قوماً عن قوم فينشأ ما يعرف بالقوميات التي تتمسك بنعرة الجنسية اللغوية. ومن صور هذا المسلك ما يراه الناس اليوم؛ إذ يرى أكثرهم أن يبقى المسلم العجمي بلسانه الذي يختلف عن لسان هذا الدين، ويرضون له أن تكون علاقته بدينه قائمة في أولها، أو في أولها وآخرها على ترجمة هذا الدين في صورة ثقافة بالألسنة المختلفة، ظناً منهم أن هذا المسلك فريضة على الأمة، يتقبله الدين عقلاً، ويحسبون أن هذا هو تيسير الدين للناس؛ حتى يعرفوه، بدل أن يبقوا بعيدين عنه بسبب اختلاف الألسنة، فتكون ترجمة الدين هي وسيلة التقريب من جانب المسلمين العرب لإخوانهم العجم، فتكثر الأصوات المنادية بسرعة ترجمة هذا الدين، أو بعضه، بكل الألسنة المختلفة، أو بالألسنة الحضارية والاستعمارية شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، تيسيراً، وتذليلاً للعجم مؤمنين وكافرين. وفي ظل هذا المفهوم السائد يفاجأ الجميع أن عدو هذا الدين نفسه يقوم بترجمته للعجم مؤمنهم وكافرهم، بل ويبذل جهوداً وينفق أموالاً في تقديم هذا الدين للعرب أنفسهم بلغة عربية أخرى تنافس عربية القرآن، بل وتتحدى بإلغاء عربية القرآن، وتعميم تلك العربية المحدثه. ومن هنا فقد ساد مسلك الترجمة، وانتهجه عدد من الاتجاهات، يمكن أن تلخص فيما يلي:

- أ. ترجمة الإسلام على أيدي أعدائه من العرب.
- ب. ترجمة الإسلام على أيدي أعدائه من العجم.
- ج. ترجمة الإسلام على أيدي أتباعه من العجم.
- د. ترجمة الإسلام على أيدي أتباعه من العرب.

هذا هو المسلك العملي الذي سلكه هؤلاء، والمقام لا يتسع للحديث المفصل عن عواقب هذا المسلك الذي اشترك فيه أكثر أبناء هذا الدين مع عدوه، وحسب البحث أن يشير إشارات بقدر ما يتحقق الهدف. ومن هذا الواقع رأينا ضرورة أن يقف البحث وقفة عند هذه الظاهرة التي تكاد أن تكون سائدة في العصر الحديث؛ لأنها تتعلق بتعليم العربية للعجم بصورة مباشرة، وتؤثر فيه تأثيراً بالغاً. لكننا أحسنا بصعوبات كثيرة؛ إذ إن مسلك الترجمة يتصف بعدة صفات ميدانية: أنه مسلك منتشر في العالم كله اليوم، تؤيده نصوص تراثية قديمة من عند علماء التفسير، نادى به كثير من دعاة وأئمة الصحوة الإسلامية المعاصرة، سلكته مؤسسات علمية كبرى في البلاد العربية وغيرها، ولا يكاد يرى في الساحة المعاصرة من يخالفه أو يعارضه بصورة صريحة. بل قد نتصور - من خلال ما نرى في الميدان - أنها قضية قد قضى فيها الأمر وليست محل خلاف؛ فكتب المفسرين تصرح بأن ترجمة الإسلام إلى الألسنة المختلفة هي الحل الذي يفهم من كلام الله -

تعالى - وهي الحل الذي يستطيعه العجم، ويستطيعه العرب، والحل العاجل الذي يحقق التعارف بين الناس على اختلاف ألسنتهم، ومن ثم فلا مكان لأحد أن يفتح ملف ترجمة الدين من الباحثين لأنه ليس بحثا علميا يخضع لإعادة النظر، فقد قال الدين فيه قولته، وسار عليها العلماء، ولا نكاد أن نتوقع أو نرى، أو نعثر على شيء يختلف مع هذا المفهوم السائد لدى الباحثين اليوم، إلا كما يبحث عن حق ضاع بين أهله، وكأنه إنما صار مسلمة دينية وأمرًا مستقرا نفرض منه الباحثون أيديهم. ومن الواجب أن نتساءل: هل جهود العجم في تعلم العربية الحققة، والصبر على ذلك أمر مستطاع، أو مستحيل؟ وهل تستطيع الترجمة أن تصنع مسلما قويا في فهم دينه، يحقق مراد الله منه، أم أن الترجمة شيء يراد؟ وهل الترجمة وسيلة أخف حملا من تعلم لسان الدين، كما يخيل للناس؟ ولماذا إذن تعلم العجم قديما وبرعوا في هذا اللسان العربي المبين، حتى ساروا من سدنته، أكانوا مخطئين، أم ماذا؟

إنها قضية تكاد تجعل الدين، في ترجمته ومراجعة ترجمته والإشراف عليها من عرب أو عجم، بشري المصدر بعد أن كان ربانيه، بدخول الترجمة - في أحسن أحوالها، أو أسوئها - وسيطا بين الناس وربهم؟ فهل هذا الضعف المستشري في ميدان تعليم العربية اليوم يرجع إلى سبب في علم العربية كلغة، أم في إعراض الناس عن تعلمها؟ إذ يرون أن الترجمة هي الحل الإسلامي، أم في معلم العربية الذي ترك الميدان وسلك طريق الترجمة فتعلم هو الألسنة المختلفة ويصير مترجما بدل أن يكون معلما؟ إن إشاعة الترجمة بين أبناء الأمة الواحدة أمر ينبغي التعامل معه من جوانبه كلها، بحيث لا يغفل الواقع إنها قضية صارت قلقة، ولا بد من إعادة النظر فيها. سلمة دينية وأمرًا مستقرا نفرض منه الباحثون أيديهم!

غير أننا نرى في الحياة المعاصرة أمورًا تستحثه على التفكير في هذه القضية مرارا، لما نرى من ضعف في ميدان تعليم العربية في كل الاتجاهات المعاصرة، ولما نرى من ضعف في شخصية المسلم الذي لم يتعلم لسان دينه، ولما يسمع من شكوى الغيورين على مستقبل هذا الدين من جراء عواقب اتخاذ الترجمة حلا لمعضلة اختلاف الألسنة عن لسان الإسلام الذي به نزل، وبه حفظ، وبه يبقى إلى الأبد... ومن ثم يقوى لدينا باعث حثيث للنظر الجاد في القضية، ومناقشة الأدلة التي يستند إليها دعاة الترجمة من عرب ومن عجم، قديما وحديثا مهما كلف الأمر، لأن المسألة تتعلق بمصير شعوب ومستقبل دين، فإذا وجدنا أن هذه الأدلة التي تقرر اتخاذ الترجمة وسيلة أولى، أو وسيلة دائمة وباقية، إذا وجد أدلة علمية من الجانب النظري لا يتطرق إليها شك آمننا مع المؤمنين، وسلمنا مع المسلّمين بهذا الحكم، واعترفنا بأن الترجمة بريئة مما ينسبها باحث إليها من أنها عقبة كؤود، ومزلق لهذه الأمة وشبهة في طريق هذا اللسان العربي المبين، ومرصد من مراصد العدو المتربص بهذا الدين ليبطئ مسيرته، ويعرقل حركته، ويضل أمته، ويفض الناس من حوله بسبب عقدة اختلاف الألسنة عنه، بما في ذلك محاربة الفصحى ليصل الأمر بالعرب إلى أن يصيروا في حكم العجم تجاه هذا اللسان العربي المبين!

كما أنه علينا . إذا صح مسلك الترجمة نظريا . أن نطالب دعاة الترجمة بالأدلة العلمية العملية، وأن نطالبهم بسد هذه الثغرات التي استطاع العدو أن يعتبر من حقه أن يقدم ترجمة الإسلام للعجم دون اشتراط عليه، أو أن تقوم الأمة بتنبية العجم على أخطاء ترجمة العدو لهذا الإسلام الغريب بينهم.

ومن الواجب هنا بعد ذلك أن نتساءل عدة تساؤلات:

- هل جهود العجم في تعلم العربية الحقّة، أو في تعلم اللسان العربي المبين، والصبر على ذلك أمر مستطاع، أو أنه أمر . كما يشاع . مستحيل؟
- وهل تستطيع الترجمة أن تصنع مسلما قويا في فهم دينه، يحقق مراد الله منه، أم أن الترجمة شيء يراد به كيدا ومكرا؟
- وهل الترجمة وسيلة أخف حملا من تعلم لسان الدين، كما يخيل للناس؟
- ولماذا إذن تعلم العجم مؤمنين وغيرهم قديما وبرعوا في هذا اللسان العربي المبين، حتى ساروا من سدنته، أكانوا مخطئين، أمّاذا؟
- وإذا كانت الترجمة . كما هو شائع . أنها المسلك الشرعي للدين مع العجم، وهي قضية تكاد أن تجعل هذا الدين . في ترجمته ومراجعة ترجمته والإشراف عليها من عرب أو عجم - تجعل دين الله بشري المصدر بعد أن كان ربانيه، بدخول الترجمة . في أحسن أحوالها، أو أسوئه . وسيطا بين الناس وربهم؟
- فهل هذا الضعف المستشري في ميدان تعليم العربية اليوم يرجع إلى سبب في علم العربية كلغة، أم في إعراض الناس عن تعلمها إذ يرون أن الترجمة هي الحل الإسلامي، أم في معلم العربية الذي ترك الميدان وسلك طريق الترجمة فتعلم هو الألسنة المختلفة ويصير مترجما بدل أن يكون معلم؟
- إنها قضية صارت - بحق - قلقا في عقل الباحثين، ومن ثم لا بد . فيما نرى . من إعادة النظر فيها!
- ومن هنا يمكننا أن نبدأ النظر في القضية من جذورها لنرى من أين نشأت هذه الشبهة، ويحاول أن يستعيد ذكر الملامح العامة لها، وذلك يمكن أن يكون على النحو التالي: أولا: كلام المفسرين في الدعوة إلى ترجمة الإسلام لغير العرب. ثانيا: كلام دعاة الترجمة من المسلمين العرب في العصر الحديث. لكن لا بد من إعادة النظر فيها إنصافا للحق⁽¹⁹⁾.
- فبالنسبة لكلام المفسرين في الدعوة إلى ترجمة الإسلام لغير العرب، وجدنا أنه بعد مراجعتنا لفهم المواضع القرآنية التي انطلقوا منها وبنوا عليها، وجدنا أنه اجتهادات غير صائبة، وأنه من قبيل ما تشابه من كلام البشر، لا يتبعه إلا الذين في قلوبهم زيغ في هذه المسألة.
- وأیضا وجدت كلام دعاة الترجمة من المؤمنين العرب في العصر الحديث من أمثال بعض مشيخة الأزهر وبعض مفكري الإسلام ليس إلا من قبيل الاجتهادات غير الصائبة أيضا ولأنها بنيت على كلام المفسرين.
- وعلى كل حال فإننا -حسب ما استقر لدينا في هذا المسألة- قد وصلنا، بحمد الله تعالى، إلى نتيجة علمية تزداد مع الوقت بيانا وجلاء، هي أن الترجمة ليست مسلك المنهج الإسلامي في تعليم العربية مع أحد من الناطقين بغيرها، بل إن دين الله يقف من استعمال اللغة الوسيطة في تعليم العربية موقفا يدل على أن الترجمة لا وجود لها البتة في التعليم، بل إنها بدعة غريبة على هذا الميدان، وواقع التاريخ الماضي للأمم والشعوب العجمية التي دخلت هذا الدين لم تسلك في موقفها من تعلم العربية إلا مسلكين اثنين لا ثالث لهما: أولا: تعلم العربية قبل حفظ القرآن، على نحو ما سلكت أمة الأندلس. ثانيا: تعلم العربية بعد حفظ القرآن، على نحو ما سلكت أمة من شعوب المشرق الإسلامي.

4. رأى تعلمها فريضة واجبة، بلا إكراه:

قال ياقوت الحموي: "روى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول: (لعلم العربية هو الدين بعينه) فبلغ ذلك عبد الله بن المبارك، فقال: صدق لأنني رأيت النصاري قد عبدوا المسيح لجهلهم بذلك، قال الله تعالى: (أنا وَلَدْتُكَ من مريم، وأنت نَبِيي) فحسبوه يقول: أنا وَلَدْتُكَ وأنت بُنْيي"، فبتخفيف اللام وتقديم الباء وتعويض الضمة بالفتحة كفروا"⁽²⁰⁾.

ونقل السيوطي: "قال الفارابي في خطبة ديوان الأدب: القرآن كلام الله وتنزيله، فصل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، مما يأتون ويذرون، ولا سبيل إلى علمه وإدراك معانيه إلا بالتبحر في علم هذه اللغة. وقال بعض أهل العلم: حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة، فليس يضبط دين إلا بحفظ اللغات"⁽²¹⁾.

ومما يدل على الحرية في تعلمها، وهو دليل يشهد أيضا بنجاح المنهج الإسلامي في تعليمها الناطقين بغيرها - ما أورده (دودي) في كتابه عن الإسلام الأندلسي رسالة للكاتب الأسباني (الفارو) الذي حزن أشد الحزن لما أصاب لغة اللاتين والإغريق من إهمال وازدراء بسبب الإقبال على لغة المسلمين فقال: "إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها"، وساء ذلك معاصرا كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف لذلك مر الأسف وكتب يقول: إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح، فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء؟ وأسفاه إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأعلى الأثمان ويتزمنون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات، منا للأسى! إن المسيحيين قد دنسوا لغتهم فلن تجد منهم اليوم واحدا في كل ألف يكتب بها خطابا إلى صديق أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب! وقد ينظمون بها شعرا يفوق شعر العرب أنفسهم في الأناقة وصحة الأداء"⁽²²⁾.

ويقول (جورج سارتون) في كتابه: العلوم والعمران في العصور الوسطى: "أصبحت اللغة العربية في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص في العالم المتمدن وحملت لواء التقدم الصحيح وحافظت على تفوقها واحتلالها مركز الصدارة بين جميع الألسن الأخرى إلى آخر القرن الحادي عشر على أقل تقدير... وكان كل من يريد أن يطلع في القرن الحادي عشر على أفكار عصره يضطر إلى أن يتعلم اللغة العربية أولا... ولذلك اتهم أركان النهضة الأوروبية العلمية من أمثال جورج باكون بأنهم اعتنقوا الإسلام لمجرد أنهم تعلموا اللغة العربية"⁽²³⁾.

5. ربط كيان الأمة الواحدة بلسان واحد:

لم يكن الإسلام بدعا من غيره عندما قرر أن يكون له لسان واحد مصطفى على غيره ليجمع عليه أمته الواحدة لتوحيد لسانها في تاريخها كله في الدنيا والآخرة، وقد رأينا أمما كبرى لا تنفك عن محاولة ربط كيان

الأمة الواحدة بلسان واحد كالاتحاد السوفيتي، والاتحاد الأوروبي. ولقد اصطفى الله للناس ديناً واحداً؛ ليكونوا أمة واحدة في عبادته، ولزم لتوحيدهم لسان مصطفى يمكن جمعهم عليه، فلزم كونه علماً ذا منهج مصطفى؛ لتيسير تعلمه وتعليمه للتواصل والترابط مع ربهم، وكتابهم، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، ولاصطفائه الدين اصطفى له رسوله، واصطفى لرسوله اللسان العربي المبين، وأراد الله، تعالى، أن يجعل عباده الصالحين أمة واحدة، على اختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها، وتعدد أماكنها.

6. عني بدراسة المعنى:

على اعتبار أنه الأصل، والمبنى وسيلته والفرع الدال عليه، فحيثما استهدف بيان المعنى فثم وجه المنهج الإسلامي.

7. عني بدراسة اللغة أفقياً ورأسياً:

بجمع الأشباه والنظائر؛ ولا يصلح البدء بكتب الرأسي قبل الأفقي؛ حتى لا يحدث خلل في العملية التعليمية.

8. جعلها علماً منضبطاً:

في أسسه، وقواعده، وأصوله، ووقف موقفاً علمياً من الشواذ، وقام بفض النزاع، وعمل على ائتلاف الخلاف العلمي، وحرر المسائل المشتبهة، وكل وقت يقترب العلماء من مقاصد هذا المنهج، بتصفية مشاربة، واستقامة قواعده، وتخليصه من كل شائبة تضعف من سلامة قوانينه، وحسبه أنه خط للعلماء هذا الأصل، وعليهم أن يسعوا لمراده.

9. يسر تعليمها بتخفيف الثقل بوسائل شرعية:

كالإعلاء والإبدال والنقل والقلب والحذف، مع أمن اللبس، ووضوح المعنى؛ حتى صار في ذلك مضمار تنافس في الإدراك العقلي للأصل والفرع، وإعلاماً بفضل التيسير بعد العلم بصعوبة وثقل العسير، أي أن دراسة المفردات يصحبها تيسير ما يبدو من ثقل أولاً بأول، بما يحدث للمتعلم، وإن حرصه على التيسير لا يقف عند حد، ومن ثم فبغيتُه "أيسر التيسير إلى يوم الدين" (24).

10. أغنى الميدان بحوائجه:

باجتهاد الرأي، واستخارات (25) الله، وبيان الدليل، وكشف التعليل، وتأويل التشابه، وفض النزاع، وترجيح الصحيح، والإنصاف والانتصاف، والإعلان عن الفصيح والأفصح، والمستعمل والمهمّل، وضمن للمعلم والمتعلم حرية الرأي وهذا يؤلف القلوب ولا ينفرها من تعليم اللغة، دون أن يخل بشيء من ثوابتها، أو يعطل شيئاً من قدرات العقل. ثم الوصول إلى خبايا اللغة والوقوف على أسرارها، فكانت الحركة قصيرة وطويلة، وكان للعلامة الإعرابية خصائص اليسر والبساطة، قصداً لبيان المعنى؛ فكان للرفع دلالة القوة واليقين، وللنصب الشرط والتعليق، وللجر التبعية والترابط، وللسكون النفي والجزم.

11. قسم تعليم العربية إلى ثلاثة مستويات:

لا يتقدم ولا يتأخر ولا يحذف منها شيء، هي (الحروف، والتصريف، والتأليف)، وربطها في نسيج تعليمي واحد: تعليم الحروف وأصواتها: كتابة وقراءة، وصلاً ووقفاً، أصلاً وفرعاً، إفراداً وتركيباً، حقاً ومستحقاً. المفردات الدالة على معنى مستقل يصلح بناؤه في شيء مفيد، ببيان المعنى والمبنى لمقتضى الحال. تعليم

قواعد الكلمة والكلم والكلام المفيد إنشاء ونقدا، بمقاييس علمية تربط الكلام بمقتضاه لتظهر بلاغة المعنى، وفصاحة المبني، وتجمع بين الإقناع، والامتناع.

12. عني بمكانة معلم ومتعلم العربية:

لأنهما عابدان، مجاهدان، مأجوران، مقدمان، حافظان لحقائق الدين.

13. حرس الميدان من الفشل الإداري، وإفساده⁽²⁶⁾:

وذلك من تسلط الإدارة الضعيفة، لأنها تكون صورة تمثل هذه اللغة القوية التي لا يصلح في تعليمها إلا الإدارة القوية الحكيمة التي لا تبخل على هذه اللغة بالمعلم الكفاء، مهما كلفها استعماله، ولا تكتفي ببعض اللغة خضوعا لنظريات سياسية، أو تجارية، أو ثقافية، ولا تقيد حرية المعلم حتى ينطلق بالإبداع والإصلاح المرجو، ومن ثم فإن أية إدارة تقوم على تعليم العربية فإنها محاسبة عند الله في هذه الأمانة، حفظتها أو ضيعتها، وإليها يرد النجاح أو الفشل، ومن ثم لا يصلح لتعليمها إلا من أحسنت أمة هذا اللسان تنشئته، ولا يصلح لتعلمها إلا من أدبت الأمة أخلاقه وهذبه.

14. حث على التخصص، والتواصل الحضاري والإفادة من المناهج التعليمية:

يقول الرافعي: "لعل الدهر أضيق من أن يتسع، أو هو أوسع من أن يضيق، لإمام آخر كأبي علي الفارسي، يفرغ سبعين سنة لفرع واحد من علوم اللغة هو علم القياس والاشتقاق والعلل الصرفية ويجعله همه وسدمه، فكأنه كان مخلوقا له"⁽²⁷⁾. ويقول عن الجواليقي، شارح أدب الكاتب: "والذي يتأمل هذا الشرح فضل تأمل يرى صاحبه كأنما خلقه الله رجل إحصاء في اللغة لا يفوته شيء مما عرف إلى زمنه"⁽²⁸⁾. ويثني الرافعي عليه بقوله: "فأنت من هذا الكتاب كأنك بإزاء كرسي التدريس في ذلك العهد، تسمع من رجل انتهت إليه إمامة اللغة في عصره، فهو مدقق محيط مبالغ في الاستقصاء، لا يند عنه شيء مما هو بسبيله من الشرح ووجوه مما انتهى إليه من أثر الإمام ابن جني فيلسوف هذا العلم في تاريخ الأدب العربي"⁽²⁹⁾.

15. قرر أن قواعد العربية استنباطية اجتهادية:

قال أبو القاسم الزجاجي: "وذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد -رحمه الله- سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو، فقل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: إن العرب نطق على سجيته وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما علته منه، فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمس، وإن تكن هناك علة فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانها، بالخبر الصادق أو البراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف ذها الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعلت هذا هكذا لعله كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباليه محتملة لذلك، فجاز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجاز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك. فإن سنح لغيري علة لما علته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها"⁽³⁰⁾. قلت: وقرأت في رواية أخرى مخاطبا غيره: "فأنت خليل نفسك". فنفهم أن علم العربية قائم على صحة استنباط العقل، وأن التعليل علم لا تهاون فيه لأن العقل مضطر إليه.

خاتمة

لقد ظهر -مما سبق- أن المنهج الإسلامي اتبع مقاصد دينه في الحفاظ على ثوابت العربية فلم ينكر قاعدة، ولم يثر على عمود الشعر القديم لأنه يبقى على أصوله لبيان تكلف الشعر وعنته؛ وإبرازا لسهولة النثر، ولذا أنزل الله به كتابه. ثم إنه منهج لا يحرم المتعلم من تيسير العربية، بل يسعى لأقصى تيسير، لكنه التيسير الشرعي الذي لا يرى حذف الصعب، ولا يفسد ترتيب علوم العربية، ولا يرضى بترجمتها لأنه هروب مذموم، وضعف، ولا يرتضى كتابا تعليميا من عداو غافل.

وبهذا أو بشيء منه يضطر المنصف إلى شهادة علمية: فإنه منهج لا ينقصه إلا أن يجد فرصته في بيئة قوية الدافعية في الإيمان بصلاحيته وقدرته، والتسليم لمقتضياته من حب، وجد، وصبر، لأنه منهج اليسر في الجهد، والاقتصاد في البذل، دونما هرب من لوازم، أو طي أو اختزال، ومن ثم فقد دل على أنه نهج التيسير الشرعي الذي لا يجادل فيه، ولا يشكو منه إلا من يشكو خمس صلوات بعد خمسين، وكأنه يريد أن تكون أقل من خمس، أو يبخسها حقها في كيفية أدائها رغبة منه في الضجر من التكليف، أما هذا فهو منهج بيان الحق مهما كلف من صبر؛ عبادة لله.

فمن أراد أن يعرف العربية ويذوق حلاوتها فلا يطلبنها إلا بمنهجها الشرعي، وقد تبين أنه ليس صحيحا ما يشاع عنها من صعوبات لا ذلول لها. وإنما قد انكشف أن خصائصها مقدسة ثابتة، وبمنهجها الحق تملك أسباب النجاح.

إن العربية الحققة تستوجب أن يكون دينها هو الأعلى، وكلمته هي العليا، لتأخذ حقها بين غيرها، وتحاسب من اعتدى عليها، وتنتصر على المناهج الدخيلة التي إذا قيل لها: لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون.

لقد استطاع هذا المنهج أن يعي أسرار العربية، وأن يواجه المصالح المرسلّة ويجعل لكل حدث جديد اسمه الدال في العربية بالاشتقاق، ويبني المجهول على المعلوم، بما يستحق اتخاذه سبيلا للمؤمنين.

وبتلخص بيان المفهوم العلمي لتعليم اللغة العربية للعجم في:

- لقد خلق الله الإنسان ودعاه باللسان العربي المبين فقال: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ"، وبه نادى الناس جميعا فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ"، فكان حق الله على الناس أن يعبدوه حق عبادته.

- كما جعل الله فقه دينه وتأويل كلامه بفقه اللسان العربي المبين وإتقان علومه المتشابكة والمتداخلة تحت علم العربية، ونص في كتابه الكريم على أن لسان دينه هو العربية فقال: "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا"، وقال: "قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ"، وقال: "وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ"، "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا"، وقال: "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا"، وقال: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا".

وإنما تراد اللغة على أنها وسيلة فهم وتفاهم: أي فهم المعنى من المبنى المسموع صوتا أو المرئي صورة ورسمًا، وتراد للتفاهم أي لنقل المعاني بمبان بين المجتمع اللغوي. ولقد خلق الله الإنسان ليعمل بمراد ربه، وهذا العمل حفظه الله وجعله علما يُتعلّم، فأنزل علم العمل بلسان عربي مبين، فلزم الإنسان التمكن من هذا اللسان العربي المبين الذي هو آلة إدراك المعاني التي منها يدرك العبد أعماله في الدنيا.

فمن تيسير الله على الإنسان أن جعل له الدين، وهو العمل الصالح، علما يتيسر له تعلمه، فأُنزل له الدين في كتاب علم، وأُرسل له الرسول - صلى الله عليه وسلم - معلما، كما قال: "وَيُعَلِّمُ الْكِتَابَ"، وقال في (آل عمران): "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"، فكانت سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هي مادة تعليم هذا الكتاب تفسره وتبينه وتشرحه نظريا وعمليا، فقال لهم معلما: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وقال: "خذوا عني مناسككم.."، ويقاس على ذلك بقية الدين في أعماله وعباداته، فلزم أن يكون معلم هذا الكتاب ماضيا على سنة الكتاب، فلما كان الكتاب بلسان عربي مبين، لزم أن يكون النبي - صلى الله عليه وسلم - عربيا، وهكذا: كان الكتاب عربيا، والمعلم عربيا.

وبقي أن يكون المتعلم، وهو الإنسان عربيا، ولعل هذا المعنى تشير به الآيات في قوله تعالى: "وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ"، وقوله: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ"، أي كيف يطلب من عربي أن يفهم كتابا أعجميا، وكيف ينتظر من الأعجميين أن يفهموا كتابا عربيا؟! واتحاد هذه الأمور الثلاثة هو ما يسعى الإسلام لإتمامه: فالكتاب عربي، ومعلم الكتاب عربي، فلم يبق إلا أن يكون متعلم الكتاب عربيا، ليتحقق المراد..

ويكلف الإسلام الإنسان إتقان اللسان العربي المبين ليفهم ويفهم، فلا يحسب أن الله افترض على أمته اللسان العربي المبين لفرض فهم الدين فحسب، إنما يريد الله أن يجمع الأمة على هذا اللسان يتعارفون به ليمثلوا الجسد الواحد، المتحد اللسان، وكل عضو من هذا الجسد سيري في لسانه المختلف مع اللسان العربي المبين، حتى العربيات الأخرى التي ضلت سبيل هذا اللسان العربي المبين، سيري الإنسان في لسانه الآخر ما يجعله يشهد بقصره وضعفه وضيقه إذا قارن بين لسان الدين ولسان الإنسان عامة قبل أن يدخل هذا الدين، فيتجرد عن لسانه الأول، ويصوم عنه - مع أنه قادر على البيان به - عبادة الله في إطار وحدة الأمة؛ فكان الإفهام هو الغرض الآخر من تعليم اللسان العربي المبين في الإسلام، ذلك اللسان المحكم الوضع، المنضبط الوزن، المستقيم الفكر، المصطفى على الألسنة، ببلاغته الرصينة وفصاحته المتينة، القادر على أن يجعل لكل شيء اسمه الدال عليه، وأن يجعل لكل شيء فعله، وأن يجعل لكل معنى مبناه، الخفيف من كل ثقل، الذي لا تختلف قواعده، ولا تحرف أصوله، ولا تنسى قيوده، المحفوظ من رب العالمين.. فبه أنزل الله كلامه، وبه كلم النبي ربه، وأتمه، ومن ثم كان هو المصطفى للدين في دنياه العملية، وهو المصطفى للدين في الآخرة، فكان لسان أهل الجنة. وبهذا صار اللسان العربي المبين فريضة أن يفهم به كلام الله وكلام نبيه، وكلام الأمة، وأن يكلم به الله، ونبيه، والأمة، في الدنيا والآخرة.

ولا يؤخذ اللسان العربي المبين من القرآن وحده إنما من القرآن، ومن كلام الله عامة ومن كلام نبيه ومن كلام الأمة، فكان اللسان العربي المبين قد أكمله الله وأتمه يوم أن أكمل الدين وأتمه، وبقي للأمة في دينها وفي لسانها أصل الشريعة الذي من الله به عليها وهو القياس، فلن تمر الأمة في قضية من شئون دينها، ولا من أمور لسانها إلا والقياس يفتيها، بأن تيسر على هدى الصراط المستقيم الذي يحفظ لدينها أصوله، ويحفظ لسانها قواعده وأركانها في كل صوت، وفي كل حرف وفي كل كلمة، وفي كل عبارة، وفي كل كلام وقول..

إنّ فاللسان العربي المبين ليس كالمنظار يتعلمه العبد ليرى به كلام الدين فحسب، إنما ينبغي أن يكون هذا اللسان لسانه، الذي به ينطق، وبه يفكر وله يستمع، وبه يكتب لأنه صار عبادة مفروضة، وسنة تتبع، وطريقة يستقام عليها، فبه يعتز، وله يمكن، وبه يدعو إلى ربه، وله يدعو إلى ربه، وبه يدعو ربه، وبه يذكر ربه، وبه يعبد ربه،.. وهذا هو مراد الإسلام.

وزاد في الأمر اصطفاء أن جعل العربية لسان أهل الجنة فدل على أنها نعمة من لدنه على أهل جنات النعيم لتكون دار فصاحة وبيان مع كونها دار فضل وإحسان، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعاً بذراع الملك، على حسن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة، وعلى لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - جُزْدُ مُزْدٍ مُكْحَلُونَ". وروى داوود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: "لسان أهل الجنة عربي".

وإن مما يبسر على المتعلم أن قيض الله له المعلم، وجعل عمله هذا عبادة يؤجر عليها، وإن مما يبسر على المتعلم أيضاً أن جعل الله تعلم هذا اللسان وطلب علمه والسعي في سبيله عبادة وجهادا في سبيل الله، والبحث عنه جهادا.

وإن مما يبسر على المتعلم أن الله تعالى قد منحه السمع والبصر والفؤاد وأحكم له بناء العربية، ووهبه من كلامه بها ما يمكن أن يتخذه منارا وهدى، وعلمه من كلام نبيه والصالحين به تراثا عظيما، وجعل دراسته الفصيح، والمقال البديع عبادة عظيمة إذا قرأ أو درس... ودعاه الله إلى تعلمه بكثير من الإشارات التي ذكر فيها عربية كتابه الحق، وبعديد من لفتات الانتباه إلى أن الله خلقه للقرآن، وعلمه البيان، وكم قال له اقرأ، واكتب وتفكر، وتدبر وذاكر وتذكر، وادرس وتفقه، وارسخ في العلم لتتأول التأويل الحق الذي يستتبط منه مراد ربه، واستغفره ليكون من المتفهمين، ومن أولي الأبواب العالمين، ومن الذين يستتبطون الحكمة والأحكام، ومن ثم كان تعلم اللسان العربي الفريضة التي بها تتحقق الفرائض، والركن الذي به ترتفع الأركان، والعماد الذي به يمسك الدين كله... فقد كلف الله الإنسان ما في وسعه وطاقته، كلفه بتعلم اللسان العربي المبين، فكان تعلمه طاعة لربه توحى إليه فعل الخيرات وترك المنكرات... ومن تيسير الله على الإنسان أيضا أن جعل هذا اللسان العربي المبين علما يُتعلم، فهدى الله الأمة إلى سبك هذا اللسان في قالب علم منضبط المقاييس، ثابت الموازين، راسخ القواعد لحفظ الدين، شامخ البنيان، قوي الصرح، رفيع القدر، فسار سننا، وصراطا مستقيما.

ومن ثم فقد صار الدين كله علما كبيرا، هو علم اللسان العربي المبين، أو هو علم البيان والتبيين. ومن يتدبر علوم الدين كلها ويربط بينها يدرك أن فقه الشريعة، ما هو إلا فقه نصوصها العربية، وأصول فقها ما هي إلا أصول استنباط المعاني الشرعية من المباني العربية. ويدور في هذا الفلك سائر علوم الدين بنصوصه العربية.

ولأجل هذه الحقيقة فقد خط الدين للسان العربي المبين رسومه، وحد له حدوده، وجلى مقاصده، ويسر أهدافه، وقرب بعيدة، وخفف ثقيله، حتى إنه بهذا يكون قد وفى بوعده القائل: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"،

وقد رفع الحرج في تعلمه، وبسر العسير في فهمه، من علم هذا اللسان، ولعل هذا بعض ما يمكن أن يفهمه الباحث من قوله تعالى: " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ "، ومن ثم صار الدين ذكرا ميسورا، وعلمنا معلوما، فكان علم اللسان العربي المبين هو آلة الدين، ومفتاحه. ولهذا صارت لهذا العلم مكانة في الدين لا تتكرر، وموقع منه لا يجهل، ورياط وثيق به لا يفكك، وحبل متين لا يقطع، من اعتصم به كان بالدين معتصما، ومن تمسك بعروته كان بالدين مستمسكا، ومن ضل عنه فقد هوى، ومن زاغ عنه فقد ضل وغوى..

وقد صار اللسان العربي المبين سلاح الدين وقوته، ونزل من الدين منزل الإزار والرداء، فكان تعلمه تعلمًا للقرآن الذي هو كتاب الدين، وتعليمه تعليمًا للدين، ونعت من تعلمه وأتم تعلمه، ومن علمه وأتم تعليمه بأنه من خير الأمة ومن أكرم العباد فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". إذن، فغاية ما نقصد إليه في البحث -بعد ما سبق- هو بيان الأدلة العلمية لكل من المتعلم والمعلم ليذكر كل منهما دوره وعمله ويتوفر عليه حبا في الله، ويتفرغ له تقربا إلى الله. ولو أنهما قاما بعملهما وأتقناه أعتقد أن العملية التعليمية ستقوى، وستحقق غاياتها المنشودة إلى حد كبير، فهما الجهتان المقصودتان في العملية كلها، وما عداهما إنما يعد من المكملات والمعينات على ذلك. فإذا كان لعلم العربية منهجه التعليمي، وخصائصه المميزة، وسماته الفريدة، فقد وجب أن يدرك المتعلم خصائص العربية العلمية، وأن يدرك المعلم خصائص العربية التعليمية.

كما أن الله قد يسر على المعلم عمله بتعليم اللسان العربي المبين، فوهبه قدرات من لدنه، وأورثه ميراث الرشاد في التعلم، فوضعه على أسس التعليم الحق، ودعاه إلى دراستها في كتابه المعلم، وفي كلام نبيه المعلم؛ فثبت بهذا أن العربية هي سيدة اللغات وأولاهن فضلا، وأرفعهن قدرا، وأولاهن عناية، وأحبهن إلى الله الذي افترض علينا كتابه، وأنطق بها نبيه في كل كلامه فصارت العربية بمكانتها هذه لغة الدين، ومفتاح الدين، بل صارت هي الدين معنى ومبنى، فدل ذلك على عدة أمور اختصت بها العربية، أجملها فيما يلي:

أولا: صارت وحيا من وحي الله معنى ومبنى، فكانت هي العلم الذي يعرف بعلم العربية.

ثانيا: صار تعلمها من الدين.

ثالثا: صار تعليمها دينا من الدين على أيدي العلماء.

رابعا: صار تيسير تعليمها جزءا من صور تيسير الدين.

خامسا: صارت واسعة باتساع الدين في معانيه وقضاياها.

سادسا: صار الحديث بها شعيرة من شعائر الدين.

سابعا: صار عدو دينها عدوها، وهذا هو موقع العربية من الدين الحق، لأنها لبه ولبابه، وحصنه وبابه..

وفي تركات السابقين الذين جربوا التعليم، وخبروا أمره، ويسروا فيه قدر طاقتهم، وذلّلوا من صعابه إلى حد يصل أحيانا إلى النهاية، وكم أورثونا من كتاب في تراث علماء العربية يحمل في عنوانه كلمة (نهاية) و(غاية)، يقف متعلمه على كل ما يحتاجه، وكم من كتاب بحث في سر العربية لسبر أغوارها، وكل ذلك حجة على المعلم، وعون له على التعليم، وبهذا يتبين للبحث أن الله قد أعذر إلى المتعلم والمعلم كليهما،

بإعلامهما أن اللسان العربي المبين له خصائصه الشرعية، وضوابطه العلمية، وأساسه التعليمية.. وأيّما خلل أو ضعف في ميدان تعليم العربية لأبنائها أو غير أبنائها، إنما مردّه إلى خلل أو ضعف لدى المتعلم أو المعلم، فلم يبق إلا أن يتعلم أقوام، ويُعلّم أقوام قبل أن يضيع علم العربية الشاكي لربه إعراض الإنسان عن تعلم وتعليم البيان. فهل أدرك المتعلم عمله؟ وهل أدرك المعلم عمله؟ وألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق..؟، وألم يأن للناس أن يسمعوا كلام الله، ويتبعوا رسول الله الذي أرسله الله لهم ليتبعوه، وألم يأن لهم أن يأخذوا كتاب ربهم بقوة، ليكون حجة لهم لا عليهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويكون لهم هدى ورحمة وبشرى؟، فالإلى متى يبقى بنو آدم معرضين عن هذا اللسان العربي المبين؟، لماذا يقطعون أنفسهم عن ربهم ودينهم ورسولهم والصالحين منهم، قطيعة في الدنيا، وقطيعة في الآخرة، إلى متى هذا الكبر عن تعلم هذا اللسان الرباني الميسر، ليس أقل من أن تتعلمه ثم تختار أن تتبع دينه بحريتك، أو تعرض عنه على علم، لأن أبا جهل كان بالحق جاهلا، لكنه لم يكن باللسان جاهلا؛ فمن يكون إذن الجاهل بالحق وباللسان معا، أو الجاهل باللسان، أو المعرض عنه، ويدعي أنه مؤمن بالحق؟!

وقد يوجد متعلم لا يجد معلما، وقد يوجد معلم لا يجد متعلما، وهذه معضلة شديدة، لا مخرج منها إلا بالتعاون بينها، ليكونا في الأجر سواء. وليس لأحد منهما أن يتخذ في تعلمه أو تعليمه سبيلا غير سبيل المؤمنين. فانتساعه في التعلم فريضة على المتعلم تتبع، وتيسير ثقله في التعليم فريضة تتبع، ومن ثم كان توقيفا في علمه، وتوقيفا في تعلمه، وتوقيفا في تعليمه، وبقدر الوفاء بهذه الثلاثية المترابطة بقدر ما يتحقق من نجاح وفلاح في العملية التعليمية لهذه اللغة العظيمة. ولذلك فقد لزم لكل من المتعلم والمعلم بيان الحجة عليه والطريق الموصلة إليه، وصار لازما من لوازم الأدلة أنه بقدر تعلق المتعلم والمعلم بالدين بقدر ما يسعى كل منهما في سبيل اللسان العربي المبين، وكان ما يرى في الحس من نتائج ميدانية آية صريحة الدلالة على المنطلق الباطن الذي يقف وراء الظاهر في هذا الأمر كله.

فبقدر دافعية المتعلم نحو الدين بقدر ما يسعى ويجتهد في سبيل تعلم دينه بمفتاحه الشرعي المضمون، وبصبر على ما يلاقي ويحتسب على ما يبتيلى فيه، وهو اللسان العربي المبين، وأجره في هذا على الله رب العلمين، وبقدر دافعية المعلم نحو الدين بقدر ما يسعى في سبيل تعليمه، وبذل جهده واحتساب جهاده في البحث عن وسائل التيسير المشروعة، ليقوم بدور حافظ اللسان العربي المبين، والحجة فيه، والذي من بعض واجباته تعليم ما تعلم منه، وتبليغ ما بلغ، وأجره في هذا على الله رب العالمين.

وإن من تيسير الله عليهما أن يسخر لهما من يعينهما في الأمر بما يمكن من إعداد وتهئية ونفقة وبلغة يتبلغ بها، إعانة من الله لهما على وعاء السفر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد، تحفها الملائكة مستغفرين لهما، وتغشاهما الرحمة وتنتزل عليهما السكينة، ويذكرهما الله فيمن عنده، لأنهما في مجلس علم وذكر ودين ابتغاء رضوان الله. وإن من مقتضيات ما سبق أن يفهم الباحث ما يلي:

1. أن يلتزم المتعلم بضوابط المنهج الإسلامي للتعلم.
2. أن المعلم لابد له أن يكون قد تعلم هذا اللسان العربي المبين بمنهجه الشرعي.
3. أن يطلب هذا العلم في تعلمه أو تعليمه لوجه الله تعالى.

4. أن تعلم وتعليم هذا العلم صورة من صور التعاون على البر والتقوى.
 5. أن هذا العلم آلة الدين، ورابطة الأمة؛ فلا يطلب تعلمه ولا تعليمه لغير هذين المقصدين الشرعيين.
 6. أن الله تكفل -وكفى به كفيلا- بتيسير هذا الطريق لكل منهما في الحاجات واللوازم والمقتضيات.
 7. ومن ثم يمكن أن القول: لا دين إلا باللسان العربي المبين، ولا لسان عربي مبين إلا بالدين تعلمًا وتعليمًا.
- أهم المصادر والمراجع :

(¹) الصواعق المرسلّة: 746.

(²) قال السيوطي عن عادات اللغوي: "أول ما يلزمه الإخلاص... ثم التحري في الأخذ عن الثقات؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ولا شك أن علم اللغة من الدين". المزهري 302/2. "فإذا بلغ = الرتبة المطلوبة صار يدعى الحافظ، كما أن من بلغ الرتبة العليا من الحديث يسمى الحافظ، وعلم الحديث واللغة أخوان يجريان من واد واحد"، "وظائف الحافظ في اللغة أربعة: أحدها وهي العليا: الإملاء... الثانية: الإفتاء في اللغة، وليقصد التحري والإبانة والإفادة... الثالثة: وهي الرواية، والرابعة وهي التعليم: ومن عاداتهما الإخلاص، وأن يقصد بذلك نشر العلم وإحياءه، والصدق في الرواية، والتحري والنصح في التعليم والاقتصاد على القدر الذي تحمله طاقة المتعلم". المزهري 330.313/2. وقال ابن الأنباري: يشترط أن يكون ناقل اللغة عدلاً، رجلاً كان أو امرأة، حراً كان أو عبداً كما يشترط في نقل الحديث؛ لأن بها معرفة تفسيره وتأويله، فاشترط في نقله ما اشترط في نقله". "ويؤخذ من كلامهما أن ضابط الصحيح من اللغة ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه على حد الصحيح من الحديث". المزهري 58/1، "قال أبو الفضل بن عبدان في شرائط الأحكام، وتبعه الجلي في الإعجاز: لا تلزم اللغة إلا بخمس شرائط: أحدها: ثبوت ذلك عن العرب بسند صحيح يوجب العمل، والثاني: عدالة الناقلين كما تعتبر عدالتهم في الشرعيات، والثالث: أن يكون النقل عن قوله حجة في أصل اللغة، والرابع: أن يكون الناقل قد سمع منهم حساً وأما بغيره فلا، والخامس: أن يسمع من الناقل حساً". المزهري 138/1.

(³) تاريخ عادات العرب: 140/1، ويقول ابن خلدون: "وذهب أبو بكر بن العربي إلى تقديم العربية والشعر على سائر العلوم؛ لأن الشعر ديوان العرب، وتعليم العربية ضرورة بسبب فساد اللغة، ثم الحساب ليتمرن على القوانين، ثم القرآن فإنه يتييسر عليه بهذه المقدمة، ثم ينظر في أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه، ومن الغفلة أن يؤخذ الصبي بكتاب الله، فيقرأ ما لا يفهم... ومذهب أبي بكر مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه، فإنها جرت على تقديم القرآن للتبرك والثواب". تاريخ ابن خلدون، 285/1-287.

(⁴) السابق 287/1.

(⁵) السابق 292/1.

(⁶) السابق: 301/1، ويقول: "والمتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم، استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد، حتى يستولي على غايات العلم، وإذا اختلط عليه الأمر عجز عن الفهم، وأدركه الكلال، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجر التعليم". السابق 288/1.

(⁷) السابق: 302/1.

(⁸) السابق: 303/1.

(⁹) السابق 293/1.

(¹⁰) السابق 298 /1.

(11) السابق 283/1.

(12) السابق 284/1.

(13) السابق 288/1.

(14) السابق/1/284.

(15) السابق /1 /652.

(16) السابق /1 /652.

(17) السابق نفسه.

(18) السابق نفسه.

(19) أعددت كتابا مفصلا لبيان وجه الحق، ومما قلت فيه: عن محمد سعيد العرفي: "من المؤكد الذي لا امتراء فيه لدى المؤمن الحر المدرك، أن مسألة ترجمة القرآن والقول بها، لا يراد منها إلا هدم الدين الإسلامي من طريق التفريق وتشتيت المجتمع، لأن اللغة العربية هي التي تجمع كلمة المسلمين". اللغة العربية رابطة الشعوب الإسلامية ص29. وينظر "أباطيل وأسمار" للشيخ شاکر، ص: 131، 235-241.

(20) معجم الأدباء، في المقدمة.

(21) المزهر/2/302.

(22) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، ص242.

(23) السابق، ص243.

(24) قدم صاحب القاموس المحيط راجيا "ضارعا إلى من ينظر من عالم في عملي أن يستر عثاري وزللي، ويسد بسداد فضله خللي ويصلح ما طغى به القلم، وزاغ عنه البصر، وقصر عنه الفهم، وغفل عنه الخاطر".

(2) كثير منهم ينص على أنه كان يستخير الله قبل أن يشرع في تأليف الكتاب، مثل ابن يعيش في مقدمة شرح المفصل، يقول: "استخرت الله في إملاء كتاب أشرح فيه" وابن منظور في (لسان العرب) فاستخرت الله سبحانه وتعالى في جمع هذا الكتاب المبارك".

(26) ينظر مقال د. ماهر بن رمضان بمجلة (الوعي الإسلامي): 530، ص44-45.

(27) وحي القلم: 3/242-243.

(28) السابق/3/252.

(29) السابق، 3/252.

(30) الإيضاح في علل النحو، ص65.